﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٨﴾ [الأنفال: 38]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا بيّن السّياق ضلالَ المشركين، أعقبَه بإرشادِهم إلى الغفران، تفاديا لمصير الهالكين

لمّا بيّن اللّه تعالى في الآية السّابقة "ضلالَهم في عبادتِهم البدنيّةِ والماليّةِ، وكان في كثيرٍ منَ العباراتِ السّالفةِ القطعُ للذين كفروا بلفظِ الماضي بالشّقاءِ، كان ذلك موهِمًا لأنْ يُرادَ مَن أوقعَ الكفرَ في الزّمن الماضي وإنْ تابَ، فيكونُ مُؤيَّسًا منَ التّوبة فيكونُ موجبًا للثّباتِ على الكفرِ"[1]، فقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَلَفَ﴾: (سلف) أصْلٌ يَدُلُّ على تَقَدُّم وسَبْقٍ، السَّلَفُ: المتقدِّم، قال تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ٥٦﴾ [الزخرف: 56]، أي: مُعتبَرًا متقدّمًا، وقال تعالى: ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ [البقرة: 275]، أي: يُتجافى عمّا تقدّمَ مِن ذنبِه، والسَّلَفُ أيضًا كلُّ عملٍ قدَّمه العبدُ[2]، وقولُه تعالى: ﴿مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ "يعني ما قد مضى مِن كُفرهم وذنوبِهم قبل الإسلام"[3].

2) ﴿سُنَّتُ﴾: (سنّ وسنن) أصلٌ وهو جريانُ الشّيء واطّرادُه في سهولةٍ، والأصلُ قولُهم: سنَنْتُ الماءَ على وجهي أسُنُّهُ سَنًّا، إذا أرسلتَه إرسالًا. ثمّ اشتُقّ منه السُّنّةُ، وهي السّيرةُ؛ وإنّما سُمّيت بذلك لأنّها تجري جريًا، ومن ذلك قولهم: امضِ على سَنَنِكَ وسُنَنِكَ، أي:

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/279، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/482، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/514.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سلف).

(3) الخازن، لباب التأويل: 2/312.

وجهك، فالسُّنَنُ: جمع سُنَّةٍ، وسُنَّةُ الوجه: طريقتُه، وسُنَّةُ النّبيّ ﷺ طريقتُه التي كان يتحرّاها، وسُنَّةُ الله تعالى قد تقال لطريقةِ حِكمتِه، وطريقةِ طاعتِه، نحوَ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ﴾ [الفتح: 23][1].

3) ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: (أول وآل) أَصْلٌ وهو ابْتِداءُ الأمْرِ، فالأوَّلُ مُبْتَدَأُ الشَّيْءِ، وهو أفعلُ التّفضيلِ بمعنى نقيضِ الآخِر، وهو الذي يترتّب عليه غيرُه، ويكونُ بمعنى أسبقَ، ويُستعملُ بمعنى المتقدّمِ بالزّمان كقولك: عبد الملك أوّلًا ثُمّ المنصور[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ترغيبٌ بالتّوبةِ والاستغفار، ووعيدٌ على الإصرارِ، كما مضت سنّة هلاك الكفّار

يُخبرُ الله تعالى عن رحمتِه بالكفّارِ المعاندين فيتلطّفُ بهم بأن يفتحَ لهم بابَ التّوبةِ، ومعنَى الآيةِ " إنّ هؤلاء الكفّارَ إنِ انتهوا عنِ الكفرِ، ودخلوا في دينِ الإسلام والتزموا شرائعَه غفرَ الله لهم ما قد سلفَ من كفرِهم وشِركِهم، وإن عادوا إلى الكفرِ، وأصرّوا عليه، فقد مضت سنّةُ الأوّلين بإهلاكِ أعدائِه، ونصرِ أنبيائِه وأوليائِه، وأجمعَ العلماءُ على أنّ الإسلامَ يَجُبُّ ما قبْلَه، وإذا أسلمَ الكافرُ لم يلزمْه شيءٌ من قضاءِ العباداتِ البدنيّةِ والماليّةِ، وهو ساعةَ إسلامِه كيومِ ولدتْه أمُّه، يعني بذلك أنّه ليس عليه ذنْبٌ"[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ فصلِ الآيةِ عمّا سبقَها:

بابُ التّوبةِ مفتوحٌ ما لم يُغَرْغِر العبدُ

في قولِه تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يصحُّ أن يكونَ فُصلَ لكمالِ الانقطاعِ؛ إذِ الكلامُ السّابقُ إخبارٌ وهذا أمرٌ. ويصحُّ أن يكونَ استئنافًا بيانيًّا؛ "لأنّ ما تقدّمَ بين يديه منَ الوعيدِ وقلّةِ الاكتراث بشأنِهم، وذكرِ خيبةِ مساعيهم، ممّا يثيرُ في أنفُسِ بعضِهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (سنّ/سنن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، السمين عمدة الحفاظ: (أوَلَ/آل).
(3) الخازن، لباب التأويل: 2/312.

والسّامعين أن يتساءلوا عمّا إذا بقيَ لهم مخلصٌ يُنْجيهم من ورطتِهمُ التي ارتبقوا (أي: وضعوا أنفسَهم في ربقةٍ كأنّهم قُيّدوا من أعناقهم) فيها، فأُمرَ الرّسولُ بأن يقولَ لهم هذا المقالَ ليُريَهم أنّ بابَ التّوبةِ مفتوحٌ، والإقلاعَ في مُكْنتِهم"[1].

الغرَضُ منَ التّعبيرِ بالأمرِ بـ﴿قُل﴾:

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ افتتحَ الآيةَ بفعْلِ الأمرِ ﴿قُل﴾، فآثرَ إخبارَهم بهذا الأسلوبِ دون أن يقولَ: (إنّ الذين كفروا إن ينتهوا) اهتمامًا بالمقول، وإلطافًا بالمقولِ له، كما أنّ فيه بيانًا لمكانةِ النّبيّ ﷺ بالتّأكيدِ على كونِه ﷺ وسيطًا بين اللّه تعالى وبينَهم في أمرِ التّوبةِ وعتقِهم من ذنوبهم، ويضافُ إلى ذلك أنّ ما يُبدأُ به بفعلِ الأمرِ (قلْ) يدلُّ على الاهتمامِ بمضمونِه؛ إذ إنّه سيتكرّرُ ذكرُه مرّتين؛ مرّةً بتلاوةِ الآيةِ كما نزلت مُصدّرةً بفعْلِ القولِ، ومرّةً بامتثالِ النّبيّ ﷺ لهذا الأمرِ فيَشرعُ بخطابِ الكافرين قائلًا لهم مضمونَ هذا المقولِ، وعندها يسمعُ الكافرون هذا الخطابَ مرّتين، مرّةً منَ اللّه تعالى، ومرّةً منَ النّبيّ ﷺ فينتبِهون إلى الاهتمامِ بهم منَ اللّه تعالى.

افتتاحُ الخطابِ بفعْلِ القولِ يُنبّهُ على أهميّةِ المقالِ

نُكتةُ التّعبيرِ عنِ الكافرين بالاسمِ الموصولِ وصِلتِه:

عبّرَ النّظمُ الكريمُ عنِ الكافرين بالاسمِ الموصولِ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم﴾؛ لأنّهم قومٌ مقصودون بأعيانِهم، فيدلُّ على العهدِ، أي: المعهودين وهم أبو سفيانَ وأصحابُه[2]، فذكْرُهم بالاسمِ الموصولِ ذمٌّ لهم، ويجوزُ أن يُرادَ به كلُّ مَن تحقّقَ به مضمونُ الصّلةِ، فتكونَ شاملةً لكلِّ

كلّ كافرٍ ينتهي عن كفرِه المنحرفِ، يغفرُ له ما قد سلف

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/344.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 5/192.

الكافرين، والتّعريفُ فيه للجنس، ويدخلُ هؤلاء دخولًا أوليًّا[1]؛ لأنّ المغفرةَ بحالِ الانتهاء عنِ الكفرِ لا تتعلّقُ بالمذكورين دون غيرِهم، فكلُّ كافرٍ إنِ انتهى عن كفرِه، فإنّ اللّه تعالى يغفرُ له.

معنَى اللّامِ في: ﴿لِّلَّذِينَ﴾ في الآية:

وجـوب إيصال مـقـول الـقـول إلـيـهـم، لأنّـه حكم لأجلهم

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ تعلّقَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لِّلَّذِينَ﴾ بفعلِ القولِ، وذكرَ أئمّةُ التّفسيرِ أنّ اللّام هنا تدلُّ على معنيَيْن: "الأول: أنّها للتّبليغ، أُمرَ أن يُبلِّغَهُم معنى هذه الجملةِ المحكيّةِ بالقولِ، وسواءً أوردها بهذا اللّفظ أم بلفظٍ آخرَ مُؤدٍّ لمعناها. والثّاني: أنّها للتّعليل"[2]، فالتّعليلُ بمعنى: قلْ لأجلِهم هذا القولَ، والتّبليغُ لتأكيدِ إيصالِ القولِ إليهم، كما أنّ فيه دلالةً على تخصيصِهم بهذا المقولِ.

نُكتةُ إسنادِ القولِ للغائبين:

إجـــراءُ الـقـولِ بمعناه لا بلفظِه مـن الإفـصـاح المبين

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم﴾ جرى ذكْرُ خطابِ الكافرين بصيغةِ الغائبِ، فلم يقل: (إن تنتهوا)؛ لأنّه أرادَ أن يُبلّغَهم بمضمونِ القولِ بالمعنى دونَ اللّفظِ، فهو "أمرٌ منَ اللّه ﷻ لنبيّه ﷺ أن يقولَ للكفّارِ هذا المعنى الذي تضمّنتْه ألفاظُ قولِه: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾، وسواءٌ قالَه النّبيّ ﷺ في هذه العبارةِ أو غيرِها، ولو كان الكلامُ كما ذكرَ الكسائيُّ أنّه في مصحفِ ابنِ مسعود: (قل للذين كفروا إن تنتهوا يغفر لكم) لما تأدّتِ الرّسالةُ إلّا بتلك الألفاظِ بعيْنِها"[3].

وفي ذلك بيانٌ لعُلوِّ مكانته ﷺ؛ فإنّ الخطابَ يتضمّنُ "تنبيهًا على أنّه ليس حظُّه مجرّدَ تبليغِ مقالةٍ، فجعلَ حظَّه حظَّ المخبرِ

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 5/292.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/514، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/192.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/527، والواحدي، البسيط: 10/149.

بالقضيّة، الذي يُرادُ تقرّرُها لديه قبل تبليغِها، وهو إذا بلّغ إليهم يُبلّغُ إليهم ما أُعلمَ به وبُلِّغ إليه، فيكونُ مُخبرًا بخبرٍ، وليس مجرَّدَ حاملٍ لرسالةٍ"[1].

دلالة وضْعِ الظّاهرِ موضعَ المضمَرِ، في السّياق:

صِلةُ الموصولِ تُبيّنُ علّةَ المقولِ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم﴾ وضعَ الظّاهرَ موضعَ المضمَرِ، فاستعملَ الاسمَ الموصولَ بدلًا عنِ الضّميرِ، فلم يقل: (قل لهم)؛ للدّلالةِ على أنّ مقولَ القوْلِ إنّما جاء لكونِهم اتّصفوا بالكفرِ، فهو خاصٌّ بهم، وفيه دلالةٌ على أنّهم استمرّوا بالكفرِ، وإمّا أن يُرادَ به العهدُ، وهم كفّارُ مكّةَ، أو أن يُرادَ به العمومُ، فهو شاملٌ لكلِّ كافرٍ في كلِّ وقتٍ؛ ترغيبًا لهم في الدّخولِ في الإيمان وحثًّا عليه[2].

التّعبيرُ بـ(إنْ) ودلالتُه:

لا أملَ محقّقٌ في رجوعِ هؤلاءِ الكافرين عن كُفرِهم

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بـ (إن) الشّرطيّةِ دون (إذا) في قولِه جلّ شأنُه: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم﴾؛ لِما بينهما من فرقٍ؛ فمدخولُ (إذا) محقّقُ الوقوعِ، وأنّه متيقَّنٌ، ووقوعُه كثيرٌ، بخلافِ (إن) فمدخولُها مشكوكٌ في وقوعِه، أو يُرادُ له أن يكونَ نادرَ الوقوعِ، فالكافرون أصرّوا على كفرِهم حتّى دخلوا الحروبَ، فانتهاؤُهم غيرُ محقّقِ الوقوعِ في القريبِ.

فائدةُ الجملةِ الشَّرطيّةِ:

ليس بين الكفّارِ ومَغفرةِ الله إلّا رجوعُهم عنِ الكفر

صاغَ النّظمُ الكريمُ الوعدَ بمغفرتِه تعالى بصيغةِ الشّرطِ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم﴾ فعلّق مغفرتَه بانتهائِهم عنِ الكفر، وكأنّه عقدٌ، وفي ذلك تأكيدٌ لوقوعِ المغفرةِ حالَ وقوعِ الانتهاء، إشارةً إلى سَعة مغفرتِه وسرعةِ إيفائِه بما وعدَ ﷻ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/344.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/100.

غرَضُ التّعبيرِ بالمضارعِ في: ﴿يَنتَهُواْ﴾ و﴿يُغۡفَرۡ﴾:

دوامُ المغفرةِ مرهونٌ بحصولِ التّوبةِ ودوامِها

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم﴾ جاء التّعبيرُ عن فعْلِ الشّرطِ وجوابِه بالفعلِ المضارعِ "أي يتجدّدُ لهم وقتًا ما الانتهاءُ عن مُغالبتِهم بالانتهاءِ عن كفرِهم، فيذلّوا للّه ويخضعوا لأوامرِه"[1]؛ كما أنّ الخطابَ جاء للجميعِ، ولا يُتصوّرُ أن ينتهيَ الجميعُ عن كفرِهم دفعةً واحدةً، بل سيكونُ انتهاءً ممتدًّا يستغرقُ زمانًا طويلًا، فعبّرَ بالفعلِ المضارعِ الدّالِّ على التّجدّدِ والاستمرارِ، كما أنّ الانتهاءَ للفردِ الواحدِ يتطلّبُ وقتًا لِما يجري في فكرِه من تأمّلٍ ومراجعةٍ، فالانتهاءُ لا يقعُ إلّا بمغالبةٍ وتدرّجٍ، كما أنّ الفعلَ المضارعَ المعبّرَ عنِ الانتهاءِ في سياقِ التّوبةِ والمغفرةِ يُشعرُ بشرطِ المداومةِ على الانتهاءِ والثّباتِ عليه، ويقابلُ ذلك كلَّه تجديدُ مغفرتِه تعالى لتجديدِهم الانتهاءَ.

سِرُّ إطلاقِ الانتهاءِ ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾، في السّياق:

لا يُعتبرُ الانتهاءُ إلّا بتحقيقِ الإيمانِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ﴾، جاء فيه الانتهاءُ غيرَ مُبيّنٍ عن أيِّ شيءٍ، فهو انتهاءٌ مطلقٌ، والمرادُ به الكفرُ "والحاملُ على ذلك جوابُ الشّرط بـ﴿يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾، ومغفرةُ ما قد سلفَ لا تكونُ إلّا لِمُنْتَهٍ عنِ الكفرِ"[2]، وقد يشملُ الانتهاءُ عن كلِّ ما كانوا يفعلون منَ القتالِ والإنفاقِ ومعاداةِ النّبيّ ﷺ، وذلك لا يصدقُ إلّا بالإيمان ودخول الإسلام[3].

نُكتةُ إسنادِ المغفرةِ لِما لم يُسمَّ فاعلُه:

المعلومُ بالضّرورةِ غيرُ مَحوجٍ للتّعبيرِ

عبّرَ في قولِه تعالى: ﴿يُغۡفَرۡ لَهُم﴾ عنِ المغفرة بالفعْلِ المضارعِ المبنيِّ للمفعولِ؛ اهتمامًا بالغايةِ المرجوّةِ، وهي المغفرةُ الموضوعةُ إزاءَ الانتهاءِ، فهي مقصودةٌ لذاتِها لا بكونِها من مُعيّنٍ؛ "لأنّ النّافعَ نفسُ

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/279.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/527.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/21، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/344.

الغفران، وهو مَحْوُ الذّنب"[1]، كما أنّ في ذلك منَ الإيجازِ ما لا يخفَى؛ إذ منَ المعلوم بالضّرورةِ أن من يغفرُ الذّنوبَ إنّما هو اللّه تعالى.

معنَى اللّام في (لهم) ودلالتُها:

الإيفاءُ بالشّرطِ يمنحُ الاستحقاقَ

في قولِه ﷻ: ﴿يُغْفَرْ لَهُم﴾ اللّام لامُ الاستحقاق، فلمّا وضعَ المغفرةَ في أحدِ طرفَي العَقدِ بينَه تعالى وبينَهم إذا حقّقوا الانتهاءَ، فعبّرَ باللّام عنِ استحقاقِهم المغفرةَ، ولم يقل: (تُغفر ذنوبهم) تأكيدًا على استحقاقِهم المغفرةَ حالَ إيفائِهم بالشّرطِ، وفيه طمأنةٌ لهم وحثٌّ على الانتهاءِ.

غرَضُ تقديمِ شبْهِ الجملةِ: ﴿لَهُم﴾ على نائبِ الفاعلِ:

في التّقديمِ إشارةٌ إلى مَزيدِ العنايةِ والاهتمامِ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ قدّمَ شبْهَ الجُملةِ على نائبِ الفاعلِ الأجدرِ بالتّقديم، فلم يقل: (يُغفر ما قد سلف لهم)؛ اهتمامًا بهم؛ لأنّ سياقَ الحديثِ في الإلطافِ بهم ودعوتِهم إلى التّوبةِ، فقدّمَ ذكرَهم تعجيلًا بإنجازِ المغفرةِ لهم؛ لأنّ الأهمَّ هنا تحقّقُ المغفرةِ لهم قبل بيانِ ماسيُغْفَرُ.

معنى (ما) في: ﴿مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ في الآية:

أثرُ عمومِ المغفرةِ في تحقيقِ عُمومِ التّوبةِ منَ الذّنوبِ والآثامِ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ عبّرَ عن سالفِ معاصيهم بـ(ما) الدّالّة على العموم؛ تعميمًا لكلّ "ما اجترحوه كائنًا ما كان فيُمحَى عينًا وأثرًا، فلا عقابَ عليه ولا عتابَ"[2]، وهي هنا اسمٌ موصولٌ، وفي ذلك بيانٌ لعظيمِ رحمتِه وسَعةِ مغفرته ﷻ، فلو قال: (تُغفر لهم ذنوبهم) لاحتمل الكبيرَ منها وحسبُ، فجاء لفظُ العمومِ قدعًا لكلِّ احتمالٍ.

بلاغةُ أسلوبِ الاتّزانِ في آية الوعد بالغفران:

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ جاءت ثلاثةُ

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/279 - 280.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/280.

تراكيبَ متّزنةٌ وهي: ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ ﴿يُغۡفَرۡ لَهُم﴾ ﴿مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ فكلُّ هذه العباراتِ على زِنةٍ واحدةٍ، فهي "محسّنٌ بديعيٌّ وهو الاتّزانُ؛ لأنّه في ميزانِ الرّجزِ"[1]، فمجيءُ العبارات على نظام الاتّزانِ القارِّ في أذنِ العربِ يَلفتُ عنايةَ السّامعِ لمضمونِ العباراتِ.

لفتُ عنايةِ السّامعِ يُحقّقُ الغرضَ

نُكتةُ دُخولِ (قد) على الفعلِ الماضي:

في قولِه ﷻ: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ دخلتْ (قد) على الفعلِ الماضي، فدلَّتْ على التّحقيقِ، ومعنى التّحقيقِ أنّ مدلولَ الكلمةِ قد تحقّقَ وقوعُه على وجهِ التّأكيدِ، وهذا يفيدُ تأكيدَ تعلّقِ المغفرةِ بالسّابقِ من أعمالِهم.

مغفرةُ ما تحقّقَ وقوعُه إلهابٌ على الانتهاءِ

دلالةُ العطْفِ بالواوِ في الآية:

الجملةُ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، معطوفةٌ على قولِه تعالى: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ فهما مشتركان بالتّضادِّ[2]، فتكرارُ الكفرِ وقتالُ المؤمنين ضدُّ الانتهاء، فالعطفُ جمعٌ بين النّقيضَيْن.

بابُ المغفرةِ مفتوحٌ، ولكنّ سُنّةَ اللهِ في الكفّارِ ماضيةٌ

دلالةُ التّعبيرِ بـ (إنْ) الشّرطيّةِ:

في قولِه تعالى: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، عبّرَ بـ (إن) الشّرطيّةِ في جملةِ الشّرطِ الثّانيةِ، فلمّا كان انتهاؤُهم في جملةِ الشّرطِ الأولى غيرَ محقّقٍ، ومشكوكًا فيه، بنى العودةَ في جملةِ الشّرطِ الثّانيةِ على الافتراضِ غيرِ اليقينيّ، تنبيهًا على أنه لاينبغي أن يكونَ إلا افتراضًا، وذلك باستعمال (إن) الشّرطيةِ دون (إذا) للدّلالةِ على أنّ تحقُّقَه لا يُقطعُ به.

عودتهم إلى ما كانوا لاينبغي أن يكون إلّا افتراضًا

بلاغةُ التّعبيرِ بالجملةِ الشرطيّةِ برمّتها:

في قولِه ﷻ: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ عبّرَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/345.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/80.

تـهـديـدٌ بـوقـوعِ الـــعـــذابِ، بمقتضَى وقـوعِ الإعراضِ

بالجملةِ الشّرطيّةِ وعيدًا لهم وتهديدًا، فالجملةُ في الآية "تجمعُ الوعيدَ والتّهديدَ والتّمثيلَ بمَن هلك مِنَ الأمم في سالفِ الدّهر بعذابِ اللّه"[1]، وجعلَ الوعيدَ قائمًا على تعليقِ أحدِ الطّرفين بالآخرِ، إن وقعَ أحدُهما، فإنّ الآخرَ واقعٌ على وجه الضّرورةِ لتعليقِه به، فإن أوقعوا عودتَهم فجزاؤُهم وقوعُ سُنّةِ الأممِ الماضيةِ، وفي ذلك تأكيدٌ لتحقُّقِ العذابِ.

فائدةُ التّعبيرِ بالمضارع ﴿يَعُودُواْ﴾، في السّياق:

عبّر النّظمُ الكريمُ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ بالفعلِ المضارعِ للدّلالةِ على ثباتِ تحقُّقِ جوابِ الشّرطِ مهما تكرّرَ فعلُ الشّرطِ، فتجدُّدُ عَودِهم إلى قتال المسلمين لن يغيّرَ المحصّلةَ والمآلَ الذي عبّرَ عنه ﴿فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، وهو انطباقُ سُنّةِ الأوّلين عليهم بانهزامِهم أمامَ جندِ اللّه الغالبين.

تـكـرارُ الـقـتـالِ وتجدُّدُه لن يغيّرَ مصيرَ الكافرين بالخُسرانِ

سِرُّ إطلاقِ العودةِ ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾، في السّياق:

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ جاءتِ العودةُ مطلقةً، ولم يُبيّن عن أيِّ شيءٍ يعودون إليه، فهي عودةٌ مطلقةٌ منَ القيد، والمرادُ العودةُ "إلى القتالِ؛ لأنّ لفظةَ (عاد يعود) إذا جاءت مُطلقةً، فإنّما تتضمّنُ الرّجوعَ إلى حالة قد كان الإنسانُ عليها ثُمّ تنقّل عنها، ولسنا نجدُ في هذه الآية لهؤلاء الكفّارِ حالةً تُشبه ما ذكرنا إلّا القتالَ، ولا يصحُّ أن يُتأوَّل (وَإِنۡ يَعودوا إلى الكفر)؛ لأنّهم لم ينفصلوا عنه"[2].

العـودةُ تتحقّقُ بـالـرّجـوعِ إلى الحالةِ التّي كان عليها

بلاغةُ حذْفِ جوابِ الشّرطِ في الآية:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ جملةٌ شرطيّةٌ ابتدأتْ بحرفِ الشّرطِ (إن) وفعْلِ الشّرطِ ﴿يَعُودُواْ﴾،

التّهديد والوعيد بـالـشّـرطِ بلا جـوابٍ أبـلـغُ في الرّدْعِ

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 7/404.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/527، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 7/403.

أمّا جوابُ الشّرطِ فهو محذوفٌ، والتّقديرُ: ننتقمُ منهم بالعقابِ والعذابِ، فليتوقّعوا الإهلاكَ والتّدميرَ[1]، أمّا الجملةُ في قولِه تعالى: ﴿فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ فهي دليلُ الجوابِ، وليست هي الجوابَ، والتّقديرُ: إن يعودوا انتقمْنا منهم فقد مضت سنّةُ الأوّلين[2]، وإنّما لم تكن هي جوابًا؛ لأنّ مُضيَّ سنّةِ الأوّلين لا يتعلّقُ بعودِهم إلى الكفرِ والقتالِ؛ لأنّها سنّةٌ ثابتةٌ، ولكنْ يتعلّقُ بهم لازمُها وهو العذابُ.

وذهب العلّامةُ ابنُ عاشور إلى أنّ الجملةَ ﴿فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ هي جوابُ الشّرطِ: "وهذا الخبرُ تعريضٌ بالوعيدِ بأنّهم سيلْقَون ما لَقيَه الأوّلون، والقرينةُ على إرادةِ التّعريضِ بالوعيدِ أنّ ظاهرَ الإخبارِ بمُضيِّ سُنّةِ الأوّلين، وهو منَ الإخبارِ بشيءٍ معلومٍ للمُخْبَرين به، وبهذا الاعتبارِ حسُن تأكيدُه بـ(قد)؛ إذِ المرادُ تأكيدُ المعنَى التّعريضيِّ. وبهذا الاعتبارِ صحَّ وقوعُ قولِه: ﴿فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ جزاءً للشّرطِ. ولولا ذلك لما كان بين الشّرطِ وجوابِه مُلازمةٌ في شيءٍ"[3].

دلالة الفاء على التّعليل في لفظ (فقد):

عـلّـةُ تـحـقّـقِ خُسرانِهم ثباتُ سنّةِ نصرِ الله لعبادِه المؤمنين

دلّتِ الفاءُ في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ على التّعليلِ، فهي تعليلٌ لجوابِ الشّرطِ المحذوفِ[4]، وليست هي الفاءَ الرّابطةَ لجوابِ الشّرطِ؛ إذ إنّ قولَه تعالى: ﴿فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ لا يصلحُ أن يكون جوابًا للشّرطِ على الرّاجحِ، فالجملةُ مدخولُ الفاء "تعليلٌ للجواب أُقيم مقامَه، والتّقديرُ: وإن يعودوا انتقمْنا منهم، وأهلكناهُم، فقد مضت سنّةُ الأوّلين في أنّا انتقمْنا منهم وأهلكْناهم بتكذيب أنبيائِهم ﷺ"[5].

(1) القونوي، حاشي على البيضاويّ: 9/80، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/174.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 5/192 - 193، وابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/265 - 266.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/346.
(4) القنّوجيّ، فتح البيان: 5/174.
(5) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/265 - 266، وينظر: القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/80.

نُكتةُ دخولِ (قد) للمرّةِ الثّانيةِ:

ما يَعدُ اللهُ به فهو مُؤكَّدُ الوقوعِ

كرّرَ النّظمُ الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ إدخالَ (قد) على الفعلِ الماضي تأكيدًا لتحقّقِ جوابِ الشّرطِ، وبيانًا لثباتِ هذه السّنّة، وإنّما أكّدَ هذه السّنّةَ تقويةً لمضمون الخبرِ، "وهذا الخبرُ تعريضٌ بالوعيدِ بأنّهم سيلْقَون ما لَقيَه الأوّلون، والقرينةُ على إرادةِ التّعريضِ بالوعيدِ أنَّ ظاهرَ الإخبارِ بمُضيّ سُنّةِ الأوّلين، وهو منَ الإخبار بشيءٍ معلومٍ للمُخبَرين به، وبهذا الاعتبارِ حسُنَ تأكيدُه بقد، إذِ المرادُ تأكيدُ المعنَى التّعريضيِّ"[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالفعْلِ الماضي ﴿مَضَتۡ﴾ في السّياق:

زوالُ الباطلِ سُنّةٌ قاهرة، وفي التّاريخ شواهدُ ظاهرة

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ عبّرَ عن جريانِ سُنّة اللّه تعالى في نُصرة أنبيائِه وعبادِه المؤمنين بالفعْلِ الماضي فقال ﴿مَضَتۡ﴾ للدّلالةِ على رسوخِها وأنّها مقطوعٌ بها وقد عَلمَها النّاسُ، "أي: وُجِدتْ وانقضتْ ونفذَت فلا مردَّ لها، بدليلِ ما سُمعَ من أخبارِ الماضينَ وشوهدَ من حالِ أهلِ بدرٍ ممّا أوجبَ القطْعَ بأنّ اللّه مع المؤمنين وعلى الكافرين"[2].

سِرُّ إضافةِ السُّنّةِ للأوّلين:

سُنّةُ النّصرِ تتعلّقُ بالرُّسلِ الغالبين، وبأقوامِهم المغلوبينَ

في قولِه ﷻ: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أضافَ السُّنّةَ إلى الأوّلين؛ لأنّ العذابَ لمّا كان يتكرّرُ وقوعُه بالمعرضين عن أنبيائِهم صارَ كأنّه سُنّةٌ لهم، وهي سُنّةُ اللّه تعالى "أي عادةُ اللّه تعالى الجاريةُ في الذين تحزّبوا على الأنبياءِ عليهمُ الصّلاةُ والسّلامُ من نَصْرِ المؤمنين عليهم وخُذلانهم وتدميرهم. وأُضيفتِ السّنّةُ إليهم لما بينَهما منَ الملابسةِ الظّاهرةِ، ونظيرُ ذلك قولُه سبحانه: ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾ [الإسراء: 77]، فأضافَ السُّنّةَ إلى المرسَلين مع أنّها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/346.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/280.

سنّتُه تعالى لقولِه سبحانه: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلٗا ٧٧﴾ [الإسراء: 77] باعتبارِ جريانِها على أيديهم"[1]، فإضافةُ السُّنّةِ للأوّلين المرادُ بهم كلُّ الأقوامِ الذين تحزّبوا ضدَّ الأنبياءِ، وأضافَ السُّنّةَ للأنبياءِ ولله تعالى، والمرادُ تحقّقُ نصرِ الله تعالى لعبادِه وخُسرانِ الكافرين مِصداقًا لقولِه تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة: 21].

معنَى (اللّامِ) في: ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

الإحـالـةُ على المعلومِ دلالةٌ على الرُّسوخِ في الأذهانِ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ يجوزُ في الألف واللّام أن تكونَ للجنْسِ، فمعنى الأوّلين الأُممُ التي سبقتْ، وعَرَفوا أخبارَهم أنّهم كذّبوا رُسُلَ الله فلقَوا عذابَ الاستئصالِ، مثلَ عادٍ وثمود[2]، ويجوزُ أن تكونَ للعهد، والمرادُ بالأولين أهلُ مكّةَ الذين استأصَلَهمُ السّيفُ يومَ بدرٍ، وفي كلٍّ منهما عِبرةٌ للحاضرين، وتهديدٌ لهم بأن يصيروا مصيرَهم[3]، وفي ذلك تأكيدٌ لوقوعِ العذابِ بجعْلِه مَقيسًا بعذابٍ قد وقعَ وتحقّقَ مِرارًا حتّى بات سُنّةً مطّردةً، فما يمنعُ أن يأتيَهم؟

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(سلَفَ) و(مضَى):

السّلفُ: أصْلٌ يَدُلُّ على تَقَدُّمٍ وسَبْقٍ، والسَّلَفُ: المتقدِّمُ، قال تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ٥٦﴾ [الزخرف: 56]، أي: معتبرًا متقدّمًا[4]، فيُلاحظُ فيه التّقدّمُ والسّبقُ. أمّا المضيُّ: فهو أصْلٌ يَدُلُّ على نَفاذٍ ومُرورٍ، المُضيُّ والمَضاءُ: النّفاذُ، ويقال ذلك في الأعيانِ والأحداثِ. قال تعالى: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٨﴾ [الزخرف: 8]، ﴿فَقَدۡ

السّلفُ يدلُّ على السّبقِ والتّقدّمِ، والمضيُّ يدلُّ على الذّهابِ والمرورِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/192، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/482، والإيجي، جامع البيان: 2/23.

(2) الواحدي، البسيط: 10/150، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/346.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/59، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/346.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (سلف).

مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: 38]. ويقال: مضى الزّمانُ، مضى الشّيءُ مُضيًّا: ذهبَ، ومضَى في الأمر مُضاءً: نفذَ، قولُه تعالى: ﴿وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ٦٥﴾ [الحجر: 65] أي اذهبوا بسرعة[1]، و"المُضيّ خلافُ الاسْتِقْبال، ولذا يُقال: ماضٍ ومستقبلٌ"[2]، فالمضيُّ يدلُّ على الذّهاب والمرورِ، أمّا السّلف فيدلّ على التّقدّم، فلذا يقال للآباء والأجدادِ سلفٌ ولا يقال لهم ماضٍ، ويقال للمتقدّمين سلفٌ، كالصّحابةِ ﷺ، وفي الآية الغرضُ بيانُ أنّ اللّه تعالى يغفرُ لهم ما تقدّمَ وسبَقَ من ذنوبهم، فكان التّعبيرُ عن ذلك بالسّلفِ الدّالِّ على التّقدّمِ.

(السُّنّةُ) و(الدّأْبُ):

السُّـنّـةُ جريانٌ على مثالٍ سبَقَ، والـعـادةُ ما اعتادَه الإنسانُ، والدَّأبُ ما أصَرَّ عليه

الدّأبُ: لا يكونُ إلّا اختيارًا؛ ألا ترى أنّ العادةَ في الأكلِ والشُّربِ المُقيمَينِ للبدَنِ لا تُسمّى دَأبًا، وأمّا السّنةُ فإنّها تكونُ على مِثال سبَقَ[3].

فالدّأبُ أصْلٌ يَدُلُّ على مُلازَمَةٍ ودَوامٍ، وهو العادَةُ والشَّأْنُ، ودَأبَ الرَّجُلُ في عَمَلِه، إذا جَدَّ[4]، فهو فعلٌ اختياريٌّ يدلُّ على المداومةِ بجدٍّ واجتهادٍ وإصرارٍ وملازمةِ العملِ، أمّا السُّنّةُ فهي تكرارُ الأمر وثباتُه، وهي طريقةٌ جاريةٌ؛ ولذا كان التّعبيرُ على الأمرِ المعتادِ بنزولِ العذابِ على الكافرين بالسّنّة؛ لأنّه كالقانونِ السّاري الثّابتِ، وليس لأنّه فعلٌ ملازمٌ يدلُّ على الحرْصِ، فإنّ اللّه تعالى وضعَ للكون نظامًا وسَنّ له سُننًا، ومن تلك السُّنن التي بيّنها في كتابه نزولُ العذابِ بالمكذّبين، فقال جلّ شأنُه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: 38].

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (مضى - مضي).
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 306.
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 226.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دأب).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»